من رسائل الصيف

النيـــل المنتصر

للأستاذ عبد الحميد يونس

أخي إبراهيم :

... وشاءت الأقدار أن تحول بيننا وبين اللقاء فوق تلك الصخرة النائئة في البحر عند سيدي بشر ، التي يعرفها الناس باسم صخرة « بئر مسعود » ... وكنا قد تعودنا اللقاء عندها كل صيف ، ولعلك لم تنس بعد ما كان لنا هناك من مجلس ، وما دار بيننا من حديث

ألم يكن يهولنا البحر الذي رأيناه كائناً حياً يفيض بالمشاعر ويزخر بالأحاسيس ؟ أما عجبنا من بغضه للقراءة وعداوته للأوراق مما يحجب الإنسان عن الاتصال به والفناء فيه ؟ وكم من مرة اختطفت نسائمه ، وما عرف عنها من فضول ، الصحف من أيدينا ، فما رددنا ذلك — لفرط افتتاننا به وقتذاك — إلى الجهل ، وإنما رددناه إلى اختلافنا وهذا البحر في النظرة والاتجاه ، فنحن قد عكفنا على القراءة عكوفنا على لفائف التبغ إنفاقاً لجهد محتبس وتزجية لفراغ طويل ، وفراراً من العقل والقلب جميعاً !

ألم نكن نأخذ على هذا البحر ولوعه بالجمال وكلفه بالحسن ، لا يبالي في ذلك احتشاماً ولا يحفل بتقليد ؟ ألم ننتقد فيه تلك الإباحية التي تدفعه إلى إيثار العري أو ما يشبه العري ، ولا تأبه لدفاعه على ألسنة أمواجه المدمدمة ورياحه المصفقة ، بأن التخفي والتستر ضرب من النفاق يجب أن يزول ؟

ألم نكن نلمح فيه بنوع خاص عزوفه عن تكلف الزينة التي أصبح الناس يحذقونها إلى حد جعل السواد الأعظم منهم لا يفرق بين الطبيعة والصناعة في قليل أو كثير ، بل وحتى أصبح الفن لوناً من التزييف المحكم الدقيق ؟

ألم نلاحظ في ذوق هذا الهمجي توحيده بين الجمال والقوة ، أو على الأقل تقريبه بينهما ، ثم تفرقته بين الجمال والجنس حتى لكأنه يرثي النزعة في تفضيل الذكور على الإناث في النوع الإنساني ... ؟

لقد سرنا أيها الصديق شوطاً بعيداً في محاولة الكشف عن شخصية هذا الكائن المهوب ودراسة نوازعه ومعرفة أهوائه .

ومن يدري فربما كنا نسكب عليه شعاعاً من نفوسنا نحن ، ونلقي عليه قبساً من نوازعنا نحن ، وأهوائنا نحن ؛ والإنسان يُضفي من مشاعره على كل ما يحيط به ، ينطق الصخور الصم الجلاميد بالشعر ، ويرسل الحكمة على ألسنة الرياح المختلطة الأصداء والنغم ... وإلا فكيف غاب عنا ما في هذا البحر من غدر وبطش وفتون ؟ ...

واليوم لا مجلس لنا عند تلك الصخرة العاتية ، ولا سمر ولا حديث ! أين المظلة المنزلة عن أخواتها لأن أصحابها زعموا لأنفسهم أنهم أكثر اتصالاً بالطبيعة وأقوى شعوراً بالجمال ؟ وأين جنيات البحر اللاتي لم يكن يراهن سوانا وهن ينشرن أجنحتهن على صفحة الماء بالألوان السبعة التي تتفرق وتتداخل حتى يرتد عنها البصر وهو حسير ؟ أين بنات (لياليت) وهن يرقصن في نشوة وجنون على موسيقى الأمواج والرياح الزاعقة ؟ أين ... أين ؟

* * *

ولست أدري ماذا فعلت أنت في هذا الصيف . أما أنا فقد استعضت عن البحر بالنيل ، ولم يكن مجلسي منه على صخرة نائئة صلبة اسفنجية السطح كصخرة بئر مسعود ، وإنما كان حيثما يلذ لي أن أجلس على شاطئه السخي الحنون . وما من مرة خلوتُ إليه إلا ذكرتك . ترى لو كنت معي في هذه اللحظات التي لا تقاس بالأعمار ، أكنت تشاركني في الإعجاب به ؟.. إنه أسمر الطلعة ، ولكنه وضاح الجبين ، تلتقي فيه الحكمة والشعر . إنه لا يحس الجمال فحسب ، ولكنه يخلقه خلقاً ويبدعه إبداعاً ؛ ثم هو لفرط شعوره بالقدرة يعبد خالق القدرة وينفق جانباً كبيراً من وقته في التسبيح والترتيل والصلاة !

في كل بقعة من واديه حياة ، وفي كل ناحية من أنحائه حب ، وفي كل ركن من أركانه معبد للجميل الذي يحب الجمال ...

ولا عيب فيه إلا حلاوة في طبعه ، ودماثة في خلقه ، ورحابة في صدره ، يراها الأغرار مظهراً من مظاهر ضعفه مع أنها سمة من سمات قوته ، وشارة من شارات اعتزازه بنفسه صيانة لها عن ادعاء القوة في معترك لا شبيه له فيه ولا قريب ...

النيل يبذل في غير تبذير ، ويأخذ في غير اغتصاب ، دائم الصدقة ، دائم الإحسان ، معتدل في حالتيه بين البسط والقبض ، لا تهاون فيه ولا غفلة ولا طيش ...

النيل خلاق ولود فيه من الأبوة ميل إلى البناء والتعمير واختزان التجاريب على الأيام والعصور ...

* * *

أتذكر أيها الصديق كتاب طبقات الأرض الذي شقينا بدراسته أيام الحداثة ، والذي كنا نعتبره إذ ذاك أنجع دواء للأرق ؟ أنت تذكره ولا شك ، ولكنك لن تصدق أنني مشوق إلى قراءته من جديد ! إنه الكتاب الذي فتح عينيّ على سر العظمة في هذا الملك العظيم ... ألم تقرأ فيه أن البحر كان يبسط سلطانه القاهر إلى الصعيد ؟ فمن الذي رده إلى حيث هو اليوم ، ومن الذي سيرده إلى أبعد من هذا غداً ؟

قل لهؤلاء الذين ظنوا به الهرم: لقد جهلتم طبيعته واستخفكم هدوؤه ... إنه يحتمل ويحتمل ، ولكنه لا يصبر طويلاً على الأذى . إنه يأخذ من الجبل الأشم ويبسط جناحيه على الصحراء الجافية ويطأ البحر بقدميه الثابتتين في أناة وبطء وعزم !

قد يستعدي البحر قبضات من رمال الصحراء عليه تستدرجها أمواجه ثم تقذفها عليه ، وقد يرسل البحر رياحه تدفع الكثبان للاغارة عليه ، ولكنه يهضمها فيما يهضم ويحيلها مادة من مواده وكتيبة من كتائبه ، وما أندر ما عسر هضمه على معدته القوية الجبارة ، إنه يلفظه إلى حيث لا يمكن أن يعود

تعال أيها الصديق انظر إلى عرائس حقوله بعيونهن المسبلة التي تفيض بالوداعة والبشر والإيناس . إنهن يتحدثن في همس ، ويتحركن في لين وخفة ، يزيد شغفك بهن كلما سترن معاصمهن تحت الشفوف ذوات الألوان الثابتة ، وإذا رقصن أعدن عليك مشاهد الصلاة القديمة التي كان يمتزج فيها الفن بالعبادة

فتننا البحر كما فتن غيرنا لأن الإنسان يكلف بما ليس في طبيعته . إننا ذرات صغيرة من هذا النيل ، وأنا في هذه الأيام السود أشعر بقوة هذا الامتزاج حتى لكأن هذا النيل يسعى على قدمين

إنه يتأهب لوقعة حاسمة سينتصر فيها كما انتصر دائماً ، ولن يبذل في سبيل ذلك إلا ذرات صغيرة ، وإن تكن عزيزة عليه ، وما أسعدني يوم يضمني إليها حين يدعو إلى التضحية والفداء

(طبق الأصل) «حمدي»

العظماء ... والفنانون ... والشعب ...
يقولون أن
دنانير
أعظم فيلم مصري ظهر حتى اليوم
يعرض الآن
بسينما ستوديو مصر
٤ حفلات يومياً
بسينما عدن بالمنصورة
بسينما أبولون بالزقازيق